العوائق الابستمولوجيّة التي تحول دون تجديد النّحو العربي القديم

إعداد الدكتورة منيرة القنوني حرم الماكني
أستاذ مساعد جامعة طيبة بالمدينة المنوّرة

جانفي 2012

العوائق الابستمولوجيّة التي تحول دون تجديد النّحو العربي القديم

إعداد الدكتورة منيرة القنوني حرم الماكني

دفعتني مسألة تعليميّة لكتابة هذا المقال تتعلّق بكيفيّة تعليم النحو العربي في أقسام اللغة العربيّة في أغلب جامعاتنا, وغالبا ما يقدّم هذا الدّرس على أنه مجموعة من القواعد التي لا تقبل التصحيح أو التعديل فهو مادة جامدة تحجرت منذ سنوات ولا سبيل لتجاوزها أو حتى تجديدها يبلّغه النحوي بأمانة مثلما تلقاه عن شيخه نقلا عن شيخه نقلا عن ألفيّة ابن مالك فتغيب اللّغة ويغيب النحو ويستحيل الدرس شرحا أدبيّا لنص شعري موضوعه قواعد إعراب اللغة العربية . كما يستفزّني الهدوء الذهني الرّهيب الذي يشعر به مدرّس اللغة العربيّة, فمادام ينام ويصحو فيجد أنّ الفاعل لا يزال مرفوعا والمفعول منصوبا

وأنّ درسه الذي نقله عن شيخه نقلا عن الألفيّة مازال صالحا للتدريس بل ويصلح لكل زمان ومكان فلا شيء يدعوه للحيرة خاصّة وأنّه مطمئن على مصير اللغة العربيّة فلا خوف عليها رغم كلّ التحوّلا ت التي يشهدها العالم الحديث بما أنها على حد تعبير بعضهم لغة فاضلة ومتوفّرة, على أسباب الخلود في ذاتها, ومقوّمات بقائها علويّة لا سفليّة, إنّ ما دفعني لكتابة هذا المقال هي حالة الجمود التي يتصف بها درس النّحو العربي في مستوييه العلمي والتعليمي"(0).

البحث اللغوي بين المادّة والموضوع

يوجد عند العديد من اللّغويين المحدثين خلط كبير بين المادّة والموضوع في تصوّرهم للغة, إنّ اللّغة العربيّة ككل اللّغات الطّبيعيّة تتحدّد بكونها طبيعة وثقافة " اللغة تكتنز مسيرة العقل الإنساني في التاريخ و تكوّن في أساسها البنيوي منطقا طبيعيّا لا يقوم على قاعدة بيولوجيّة فقط بل يقوم أيضا على ترشيح التجربة الثقافيّة في أبنية يجرّدها العقل بترسّبات تقع عبر التّاريخ "(1) تمثّل الوقائع اللغويّة مادّة الدراسة الغويّة وبالنظر في هذه الوقائع يسعى اللغويّ للكشف عن النّظام الطبيعي الذي يسيّرها, وبسعيه للكشف عن النّظام يحاول أن يفهم كيف تنشأ الوقائع لمحاولة أكثر تقدّما في البحث هي محاولة التكهّن بها, يتمثّل موضوع الدّراسة اللّغويّة أوّلا في وصف الوقائع اللّغويّة ثمّ ثانيا في البحث عن النّظام الصوري الشكلي الذي يتحكّم في الإنتاج اللّغوي ونتيجة لعمليّة البحث قد يتوصّل الباحث إلى بناء نموذج افتراضي يقدّم نظاما افتراضيّا يسعى لتفسير النّظام الطبيعي لكن وفي جميع الحالات يبقى النّموذج الافتراضي المتضمّن للنّظام الافتراضي تصوّرا للنظام الذي يسيّر الوقائع اللغويّة دون أن يكون انعكاسا لها. لأنّ العلم ليس انعكاسا للواقع وإنّما قراءة له تعتمد نماذج قابلة للتقييم والنّقد. يقع اليوم الخلط بين النحو القديم و هو نموذج افتراضي يقدّم وصفا للوقائع اللّغويّة ونظاما افتراضيّا يفسّر النّظام المتحكّم في إنشائها ,والنّظام الطبيعي نفسه فيقدّم هذا النّحو على أنّه مجموعة من القواعد غير قابلة للتقييم و النقد, والغريب أنّ هذا

الخلط يقع رغم تقدّم مناهج الدراسات اللغويّة و تقدّم مناهج العلوم عامّة, والأغرب من كلّ هذا أنّ النحاة العرب القدامى أنفسهم وهم يضعون نماذجهم كانوا على وعي تام بهذه المسألة الابستيمولوجيّة الهامّة ,وخير دليل على ذلك نصّ الخليل ابن أحمد الفراهيدي(170هـ) في تفسيره لعلل النّحو, يكتسب النصّ أهميّته لأنّه للخليل المعلّم الأوّل و مؤسس علم الصّرف والمعجم و الأصوات بما لا يدعو للشك لأنّ المسألة واضحة في مقدّمة كتاب العين , يبيّن النصّ أن النحاة الأوائل في معالجتهم للغة كانوا على وعي تام بأنّهم يقدّمون نماذج افتراضيّة:<< سُئل الخليل بن أحمد عن العلل الّتي يعتلّ بها في النّحو، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال: إنّ العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقامت في عقولها علله وإن لم يُنقل ذلك عنها، وعلّلت أنا بما عندي أنّه علّة لما علّلته منه، فإن أكن أصبت العلّة فهو الّذي التمست، وإن يكن هناك علّة غير ما ذكرت فالّذي ذكرته محتمل أن يكون علّة له. ومثلي في ذلك مثل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبة النّظم والأقسام وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصّادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللاّئحة، فكلّما وقف هذا الرّجل الدّاخل الدّار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة وسبب كذا لعلّة سنحت له وخطرت محتملة أن تكون علّة لذلك فجائز أن يكون الحكيم الباني للدّار فعل ذلك للعلّة الّتي ذكرها هذا الّذي دخل الدّار وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلّة إلاّ أنّ ما ذكره هذا الرّجل محتمل أن يكون علّة كذلك، فإن سنحت لغيري علّة لما علّلته من النّحو هي أليق مّما ذكرته بالمعلول فليأت بها >>(2) رأى الخليل أوّلا أنّ اللّغة تخضع لنظام طبيعي وأنّ المتكلّم يملك هذا النّظام بواسطة قدرات فطريّة " نطقت على سجيّتها " ، وأخرى ذهنيّة " قامت في عقولها علله" ويتمثّل عمل النّحوي في تقديم تصوّر عن هذا النّظـام ومثال الـدّار وبانيها وداخلهـا يبرز أنّ مهمّة النحوي تتـمثل في تفكيك النظام الطبيعي بواسطة الملاحظة وإعادة بنائه بواسطة الافتراض وهو ما يسميه بـ " الخبر الصادق، والبراهين الواضحة، والحجج اللائحة " أي إعادة البناء وفق منهج افتراضي استدلالي. فيتّضح مفهوم النموذج باعتباره تركيبا للمعطيات الملاحظة بهدف البحث عن النظام و بعد أن يتمّ النحوي بناء نظامه يقارن بينه وبين النظام الطبيعي فقد يوافقه وقد لا يوافقه ولكنّه يبقى حسب الخليل بناء " محتملا " ممكن الصدق و لا يتأتّى صدقه من مطابقته للنظام الطبيعي وإنّما من التناسق الداخلي الّذي قام عليه، فالانسجام بين معطياته هو الضامن لصدقه, وقد يأتي نحوي آخر فيبني بناء افتراضيّا آخر قد يكون أقدر على

تفسير النظام الطبيعي من البناء الأوّل فتكون درجة احتماله أقوى لأنّ درجة تفسيره أقوى. وعلى هذا الأساس الابستمولوجي قدّم النّحاة القدامى تصوّراتهم ضمن نماذج تسعى لوصف جهاز اللغة العربيّة وتفسير النّظام النحوي المنتج لهذا الجهاز, وقد كانت إلى حدود القرن الرابع نماذج قابلة للنقد ساهم تقييمها في تطوّرها من نحوي لآخر. فلماذا أضحى الدّرس النّحوي في أغلبه اليوم درسا مقتصرا على وصف الجهاز مهملا للجانب الخاصّ بتفسير النّظام؟ ثمّ ماذا حصل حتى أصبحت هذه النماذج جامدة لا يمكن تجديدها أو حتى البناء عليها .

الدرس النّحوي القديم منظومة مغلقة

يقدّم النّحو القديم في العديد من جامعاتنا على أنّه حارس اللّغة الأمين إذ لا بدّ أن تتعلّم قواعد النّحو لتجيد استعمال اللغة مما أضفى عليه نوعا من القداسة فهو لا يقبل التقييم ولا التجديد ناهيك عن التّغيير وهو منظومة مغلقة أقصى ما تسمح به الوصف والتصنيف إنّ التفكير العلمي عامّة لا يمكن أن يتقدّم إلاّ إذا كان قادرا على طرح قضايا جديدة للبحث و يرى الابستمولوجيون أنّ القضايا العلميّة لا تطرح نفسها بنفسها فالقدرة على وضع الأسئلة الجديدة وصياغتها بوضوح هو الطابع الحقيقي للبحث العلمي (3) وسواء كان العلم يتطور تراكميا أو في قطيعة مع ما سبقه فالسؤال الذي يحرّك البحث يتأتّى أساسا من العلم السابق له فكل معرفة علميّة جديدة هي تصحيح لمعرفة سبقتها والأخطاء السابقة هي المحرك الأساسي لبناء المعرفة الجديدة فلا معرفة تبنى من الفراغ هنا يكمن المشكل حسب رأيي إنّ البحث في مجال الدراسات النحويّة يشهد تعثّرا وصعوبة في مواكبة التجديد لأنه يعجز عن بلورة قضايا حقيقية للبحث إذ لايمكن مقاطعة البحث القديم ولا حتى البناء عليه لأنّه لم يخضع للتقييم ومازلنا نجهل مواطن الخلل فيه بل ونجهل أغلب ما جاء فيه.

المجهود اللغوي العربي حلقة مفقودة ضمن تاريخ اللّسانيات عامة

يلاحظ كل من يراجع تاريخ اللسانيات كيف يقفز الغربيون في تأريخهم للسانيات على المجهود العربي انظر تعريفهم للسانيات في المعاجم والموسوعات اللسانية انظر مثلا تعريف لسانيات تاريخيّة في الموسوعة الالكترونيّة وكيبيديا فاللّسانيات علم يدرس اللغات الإنسانية نشأ قبل 2500سنة مع الهنود وأوّل نحوي الهندي بانيني 1000ق م ثم وضعت المبادئ الأولى للنحو مع أرسطو ووقعت الصياغة العامة للنحو مع الرومان في القرن 6م مع بريسكان " ثم بقيت على ما هي عليه إلى حدّ الآن " ويقفزون من القرن السادس إلى القرن 18مع ظهور النحو المقارن . ما هي منزلة النحو العربي في الفكر اللّساني عامّة هل أن اللغة العربية ليست واحدة من اللّغات البشريّة أم أنّ النحو العربي تناول موضوعا غير اللغة في هذا الأمر كله توجد مغالطة تاريخيّة كبيرة كيف يمكن أن يذكر في جميع الموسوعات نحوي ليس له أي اثر مكتوب في النحو مثل panini أو priscian ولا يذكر مجهود كبير جدا كما وكيفا مثل مجهود النحاة العرب والمشكل أنهم يعرّفون اللّسانيات بأنها العلم الذي يدرس اللغات البشريّة لا الهندوأروبية فحسب ثم إنهم يذكرون في نفس المقال العربية واحدة من اللغات البشرية بل ويتوسعون في بيان اللغات المتفرعة عنها الجواب الوحيد عن مثل هذا السّؤال هو أن النحو العربي ما يزال إلى اليوم مجهولا بل وحلقة مفقودة في تاريخ اللسانيات ولعل التقصير سببه العرب أنفسهم فلا بدّ أن نعترف أننا لم نؤرّخ للسانيات العربيّة وأننا في غياب هذه التاريخيّة الواسعة عاجزون عن إدراك حركة الفكر اللّساني الحديث في سيرورته التاريخيّة .

المطلوب اليوم أن ننظم الفكر اللغوي العربي القديم ضمن الفكر اللساني البشري إذا أقفلنا هذه الثغرة أمكننا النظر إلى هذا الفكر التراثي باعتباره حلقة من حلقات هذا الفكر اللّساني الإنساني و أمكننا تبين مواطن القوّة ومواطن الضعف فيه و أمكننا البناء عليه أو الخروج منه على غرار ما فعل الرياضيون بالرياضيات الإقليدية وجبر الخوارزمي و غيرها وعلى غرار ما يفعله اللسانيون الغربيون أنفسهم فهم يتقدّمون

بسرعة كبيرة جدا لأنّ البحث اللغوي عندهم يقوم على أساس حركة نقديّة تصحيحيّة لا تتوقّف فكل نموذج لساني جديد هو قائم بالأساس على تقييم نموذج سابق عنه والمشكل الأساسي في تعاطي اللّغويين العرب مع النموذج النحوي القديم ناتج عن غياب آليّة للتصحيح والنّقد.

ولئن كان من غير المفيد أن يعتقد بعض السلفيين أنّ العربيّة لغة مقدّسة لا يمكن مقاربتها بمنوالات وصفيّة لسانيّة حديثة فانّه أيضا من غير المجدي أن يقرر بعض الحداثيين اليوم قطيعة مع النحو القديم وهي في أساسها قطيعة وهميّة لا تبنى على دراسة نقديّة للقديم للإمساك بمواطن الخلل العلميّة فيه وهي الوحيدة التي تقدّم للباحث القضايا الحقيقيّة التي تمكنه من تجديد هذا النحو أو مقاطعته وما لم تتحقق هذه القطيعة العلميّة الحقيقيّة سيضلّ هذا النحو القديم يطل علينا في أبحاثنا كالأشباح ونعود إلى الحلقة المفرغة نفسها اللسانيات والنحو القديم حلقة جمّدت النحو التراثي وأخّرت البحث اللّساني العربي

مشكلة المنهج في مقاربة النحو التراثي

أهم مشكلة تواجهنا في مقاربة التراث هي مشكلة المنهج فلا يمكن أن نعيد إنتاج النص بلغته لا بدّ أن نضع حدا لمنهج قديم أفسد المعرفة العلميّة وكان سببا في تعطيلها قرونا وهو منهج الشرح منهج تعليمي تيسيري حدوده لا تتجاوز الوصف والتّصنيف أي إعادة إنتاج نفس المعرفة بنفس الأدوات و إذا كان يفترض في الحديث لحداثته أن يجاوز القديم فإنّ هذه الشروح بمختلف مراحلها لم تكن لها هذه المقدرة بل إن النّصوص الأصلية تتجاوز شروحها كثيرا من حيث القيمة العلميّة و يمكن أن ندرج في هذا الإطار أغلب ما كتب قديما وحديثا عن التراث

من جهة أخرى لا يمكن أن تساعد المفاهيم اللّسانية الحديثة و مصطلحاتها على تكوين جهاز صالح لوصف وتقييم النحو القديم وهو ما دعا إليه الكثير من اللّسانيين العرب بدعوى تحديث النحو التراثي ومنهم من يصطلح على المنتوج الجديد مصطلح لسانيات التراث وهو عمل توفيقي يجمع بين نتائج الفكر التراثي والنظريات الحديثة . إنّ أيّ مفهوم لساني جديد هو نتاج لنظريّة قائمة على فرضيات خاصّة بتلك النّظريّة وقراءة نص قديم بنظريّة جديدة يوقع في الخلط والإسقاط ويضيّع النصّ الأصلي من حيث الأساس ومن جهة أخرى من العبث إفراغ المصطلحات اللّسانيّة من مفاهيمها وربطها بمفاهيم قديمة فهذه ليست عمليّة تحديث

في الحقيقة إنّ أنسب مقاربة للنحو القديم في اعتقادنا هي المقاربة النّقديّة ونقصد بالنّقديّة الابستمولوجيّة أي تقييم النّحو القديم انطلاقا من المبادئ التي تقيّم بها عادة النّظريّات العلميّة ونحن في هذا نسلّم بكون النحو العربي مثّل فعلا نظريّة قديمة " تكشف النصوص النحويّة التراثيّة عن نظريّة نحويّة ضمنيّة ولعلّ دوران النّحاة العرب القدامى بين الأمثلة منذ الخليل (170 هـ) هدفه البحث عن بنية إعرابيّة مجرّدة ممثلة لجميع الأبنية المنجزة (4)

هذا الدليل وحده غير كاف لكنّ هذه المسلّمة فرضيّة بحث مثل هذه الدراسة النقديّة تستوجبها يمكن أن تنتهي العمليّة النقديّة بدحضها أوتصديقها وهذا هو الأهمّ في اعتقادنا فما لم نطرح ذلك فرضيّة للاختبار سنبقى نتساءل دائما هل النحو العربي مثل نظريّة علميّة أم هو مجرّد نصوص نظرية صالحة للتطبيق على حدّ قول هيلمسلاف . تبيّن الكثير من الأدلّة الإجرائيّة والنّظريّة: أنّ النّحاة العرب في تناولهم للمادّة النّحويّة اعتمدوا على منهج افتراضيّ استنتاجيّ وأنّ هذه النظريّة المفترضة لها شكل نظريّة اختباريّة إنّ الدليل على مثل هذا الافتراض هو معالجة النّصوص التراثيّة نفسها لكن يوجد في التراث بعض النّصوص المنهجيّة التأسيسية التي تطرح ذلك من غير أن تؤكده لأنّ التأكيد عندنا لا يكون إلا بالاختبار من هذه النّصوص نص الخليل ابن أحمد (170 هـ) الفراهيدي المذكور سابقا(5).

من جهة أخرى نشير إلى وجود اختلافات نظريّة بين النّحاة القدامى في تفسيرهم للغة تضطر ّإلى الفصل بين افتراضاتهم وعدم التّعامل معها على أنّها ممثّلة لأفكار جامدة لا تتطوّر. ولا بدّ في هذا الإطار من الاحتراز من بعض الأحكام القديمة التي مازالت متداولة في الكثير من الأبحاث الحديثة منها مثلا أنّ النحو العربي نشأ واكتمل مع سيبويه وأنّ فضل من جاء بعده لا يتعدّى الشرح والتنظيم, وهذا غير صحيح لأنّ سيبويه في الكتاب تعقّب البنية الدلاليّة من خلال دراسته للنّصب واشتغل خاصّة على مسألة تمام المعنى وحصره في العلاقة بين النّاصب والمنصوب, في حين اهتمّ النّحاة بعده بالبنية النّحويّة التركيبّة, كان ذلك ابتداء بالمبرّد الذي أسّس مفهوم الجملة. إنّ الخلاف بين النّحاة كان عميقا على الأقل إلى حدود القرن الرّابع للهجرة ممّا يجعل من الأخطاء المنهجيّة التعامل مع النّحو القديم على أنّه تفكير واحد و من الضروري أن يقع النّظر للنحو القديم في ضوء المسائل الخلافيّة بين النّحاة, وليس الخلاف حكرا على ما سمّي قديما بكتب الخلاف مثل الإنصاف للأنباري أو التبيين للعكبري . وإنّما كل ما كتب في النحو القديم يندرج ضمن مسائل الخلاف النّحوي ولعلّ أوّل كتاب نقل المسائل الخلافيّة بين النّحاة هو كتاب سيبويه فقد نقل أوّلا خلافا بين الخليل ويونس، ثمّ خلافا بين سيبويه والخليل. ويقوم كتاب " المقتضب " للمبرّد على مادّة خلافيّة أساسيّة لعلّ أهمّها الاختلاف بين المبرّد وسيبويه والأمر نفسه في كتاب " الأصول " لابن السّراج فقد أثبت لأوّل مرّة الاختلاف بين النّحاة البصريّين والكوفيّين وأغلب المسائل الواردة في كتاب " الإنصاف " للأنباري نقلت عن أصول ابن السرّاج ونقل ابن السرّاج خلافا هامّا بينه وبين المبرّد وهذه المادّة الخلافيّة تجعلنا لا ننظر نظرة واحدة إلى ما سمّي بالنّحو البصري، بل ننتبه إلى الخلاف بين النّحاة الّذين نسبوا إلى هذا النّحو ونتساءل ألا تختفي وراء هذه الاختلافات أنساق نحويّة نظريّة مخصوصة أنتجت نماذج تفسيريّة متعدّدة ؟

قدّمت العديد من الدّراسات الحديثة والقديمة تصوّرات مختلفة حول نشأة النّحو وتطوّره، وتعدّد مدارسه وهي تصوّرات مختلفة لأنّ أغلبها بني على أحكام انطباعيّة اعتمد أصحابها خاصّة على كتب الطّبقات، وفيها تكثر الأخبار فكلّ ما قيل عن نشأة النّحو بقي مجرّد انطباعات لا ترقى إلى درجة البحث العلمي الدّقيق وقد ميّز أصحاب هذه الدّراسات بين النّحو الكوفي والنّحو البصري ورأوا أنّ الكوفة ذات منهج نحوي يقوم على الاتّساع في السّماع والأخذ عن كلّ الرّوايات وعن العرب بمختلف لهجاتهم في حين يقوم المنهج النّحوي البصري على القياس إذ تطوّر ضمن دراسة منطقيّة عقلانيّة تضيّق السّماع ولا تقبل من المستعمل إلاّ ما توفّرت فيه شروط الفصاحة.

إنّ نقد نظريّة علميّة قديمة يستوجب معرفة دنيا بتطوّر العلم في فترة النّقد، وأغلب هذه الدّراسات قام بها باحثون لا يبدو في تحليلاتهم ما يدلّ على أنّ لهم فكرة واضحة نسبيّا عن تقدّم اللّسانيات في عصرهم والقضايا الّتي تعترضها والمناهج الّتي تستعملها ولا يبدو أنّ هؤلاء انكبّوا بما يكفي على دراسة الأصول المنهجيّة والنظريّة العامّة للعلوم والعلوم اللّغوية بالخصوص. كذلك أعتمد أغلبهم على ما جاء في كتب الطّبقات وما روي من أخبار عن النّحاة ونعتبر أنّ كتب الطبقات وإن كانت مهمّة في تتبّع التاريخ الخارجي للنّص النّحوي فإنّها غير كافية لبيان تطوّر نسقه ونماذجه فاهتمامها كان موجها لتاريخ الرّجال لا العلم .

المعالجة النقديّة لنظريّة علميّة قديمة

من العبث تقييم علميّة نظريّة قديمة بمقاييس نقديّة قديمة ,فهو بحث غير مفيد لأنّه لا علم إلّا ما نحن فيه ولا جدوى من بحث ينتج معرفة قديمة.

إنّ نقد نظريّة قديمة ينتج حتما بحثا جديدا إذا كانت وإذا كانت فقط مقاييس النّقد حديثة وهو واحد من أهمّ المبادئ الابستمولوجيّة التي يقوم عليها نقد أي نظريّة علميّة فليس المهم أن تكون النظريّة قديمة أو جديدة وإنّما المهم قيمتها العلميّة, والقيمة العلميّة لا

يمكن تحديدها إلا بمقاييس نقديّة ابستمولوجيّة حديثة وأحسن مثال على ذلك النظريات الرياضيّة القديمة مثل الرياضيات الإقليدية أو نظريّة الحساب الثنائي التي لم يمنعها قدمها من أن تكون أكثر نظرية رياضيّة ذات جدوى اليوم وذلك لقيمتها العلميّة الحديثة

شروط تحقق علميّة النظريّة :

تتنتظم المعطيات النظريّة عامة لأيّ نظريّة علميّة ضمن أنساق و يحيل مصطلح " نسق " (*Système*) في استعمالاته الابستمولوجيّة الحديثة على منظومة من الفرضيّات المستنبط بعضها من بعض فكلّ فرضيّة تنتج الفرضيّة الّتي تليها، وهي نفسها منتجة من الفرضيّات الّتي سبقتها ويمكن التّمييز بين نوعين من الفرضيّات: الفرضيّات الكبرى وهي أوليّات لا يبرهن على صحّتها وتكون قليلة ومحدودة في نسق من الأنساق، ثمّ الفرضيّات المستنبطة من الأولى وتسمّى المبرهنات (*Théorèmes*) ويعتبر مقياس صحّة نسق ما درجة انسجامه وعدم التّناقض بين مختلف فرضيّاته ومبرهناته [6]

يري الابستمولوجيون أنّه لا بدّ أن يتوفّر شرطان أساسيّان لتوصف نظريّة اختباريّة بأنّها نظريّة علميّة :الصّياغة الصّارمة للمعطيات النظريّة و القابليّة للاختبار

- **الصّياغة الصارمة للمعطيات النّظريّة ضمن أنساق محدّدة بدقّة :**<< لاختبار نسق ما يجب أوّلا أن يكون له شكل محدّد بدقّة، ونهائي حتّى لا يكون من الممكن إقحام فرضيّات جديدة وبعبارة أخرى يجب أن يُصاغ النّسق بدقّة ووضوح حتّى يتيسّر لنا تحديد كلّ فرضيّة جديدة لأنّ كلّ تحوير هو مراجعة للنّسق>> [7]تمكّن الصّياغة الواضحة والصّارمة للنّسق من الفصل بين فرضيّاته فتحدّد الفرضيّات الكبرى وما نتج عنها من مبرهنات ثمّ إنّ هذه الصّياغة الصّارمة تمكّن من الكشف عن كلّ فرضيّة جديدة وقع إقحامها في النّظام فنكشف بذلك عن كلّ تحوير أصاب النّسق، وعن مواطن مراجعته وقد تؤدّي مراجعة نسق من الأنساق إلى إنتاج نماذج تفسيريّة مختلفة كلّ نموذج منها يطمح إلى درجة أعلى في التّفسير وقد رأى لاكاتوس [8] أنّه لا يمكننا أن نتحدّث عن " النموذج ـ modele" إلاّ ضمن سلسلة من المراجعات لنفس النّسق ويسمّى هذه المراجعات " مشروع بحث " حيث كلّ مراجعة

تمثّل نموذجا وهو صياغة صارمة ومحدّدة لحلقة من الحلقات الّتي يراجع فيها النّسق ويمكن أن نتحدّث عن نسق واحد ونظريّة واحدة أنتجت عدّة نماذج فهل أنتج النّحو العربي مجموعة من الأنساق كلّ نسق منها قام على افتراضات أوليّة مختلفة ؟ أم أنّه نسق واحد وقعت مراجعته ضمن نماذج تفسيريّة مختلفة ؟

ـ القابليّة للاختبار وتطرح النّظريّة للاختبار من عدّة جوانب منها:

ـ دراسة التّناسق الدّاخلي للنظريّة وذلك بالنّظر أوّلا في أساسها الاختباري، بدراسة الوقائع الّتي مثّلت مادّة البحث وثانيا بمعالجة النّتائج النظريّة والمقارنة بينها وبيان درجة انسجامها .

2- دراسة الشّكل المنطقي للنظريّة لتبيين ما إذا كان لها شكل نظريّة علميّة اختباريّة أم هي نظريّة من تحصيل حاصل (*Tautologique*) أي نتائجها لا تتجاوز تعريفاتها وأوّليّاتها ويتبيّن هذا الشّكل بالفصل بين الفرضيّات الكبرى ومبرهناتها وبيان العلاقة بينها.

3- دراسة القيمة الاختباريّة للنظريّة و تبرز من خلال: (أ) درجة بساطتها (*Le degré de simplicité*) هل هي نظريّة قويّة تتكوّن من مبادئ قليلة وكونيّة أم هي نظريّة ضعيفة تكثر فيها القواعد والقوانين الفرعيّة (ب) درجة قابليّتها للدّحض (*Le degré de falsifiabilité*) ونتبيّن من خلاله ما إذا كانت هذه النظريّة تقوم على مصادرات قليلة وأوّليّة أو أنّها تدافع عن نفسها إزاء كلّ عمليّة اختبار لاستنتاجاتها بتقديم أوّليّات ومصادرات فرعيّة وجديدة ممّا يضعف من قيمتها العلميّة

كما تقيّم النظريّة بمقارنتها بنظريّات أخرى لبيان خصوصيّاتها وتطبيقاتها في مجالات علميّة أخرى وكذلك ببيان ما إذا كانت تنضوي ضمن مشاريع أكبر أو أنّها تمثّل مشروعا مخصوصا؟ والمبادئ الّتي تقيّم بها النظريّة هي نفسها المبادئ الّتي تقيّم بها النّماذج والأنساق الخاصّة بها.

منهج تقييم النحو العربي القديم

إجمالا يقوم تقييمنا للتراث النحوي على الافتراض بأنّ النحو القديم قام على نظريّة ضمنيّة هذه النّظريّة لها شكل نظريّة اختباريّة قامت أساسا على منهج الافتراض والاستنتاج وكما ذكرنا سابقا يمكن أن ينتهي تحليلنا إلى دحض هذه الفرضيّة أو إثباتها نحتاج للكشف على هذه النّظريّة الضمنيّة إلى الاشتغال على النّقاط التالية :

- تتبع المادّة النحويّة النظريّة المصرّح بها واستكمال ما لم يصرّح به عملا بمبدإ الإقتضاء والاستلزام وهو آليّة ضروريّة في قراءة النصّ القديم

- تخليص المادّة النحويّة النّظريّة من المادّة الأدبيّة الممثلة في الاستشهاد وهي مادّة كثيفة أسهمت في تشتّت المعطيات النّظريّة وأحيانا ضياع خيطها الناظم

- الاكتفاء بالأمثلة المصنوعة " العرف القديم يجرّد الأمثلة من دلالات النصّ والمقام ليبرز ما فيها من المعنى النحوي الخالص فمثل هذه الأمثلة أبلغ في الكشف عن روح النحو "(8) يمثّل كل مثال مصنوع بنية نظريّة مجرّدة

- الاحتراز من تبويب الكتب النّحويّة القديمة فهو غالبا لايعكس ترتيبها الحقيقي وأحسن مثال على ذلك الكتاب لسيبويه والمقتضب للمبرّد

- إعادة صياغة المادّة النّظريّة ضمن نماذج محددة بدقّة تحاول تمثّل الانسجام بين جميع المعطيات ونقصد بمصطلح نموذج – وهو مصطلح تقني – الصّياغة الصّارمة الّتي تعيد بناء المعطيات ضمن مثال مصغّر أو نموذج يحتوي ضمنيّا في شكل مختزل على خصائص موضوع واسع الأبعاد، ويمكن أن يكون قابلا للقياس، أو للحساب أو للاختبار الفيزيائي ونحاول بواسطة النّموذج إعادة تركيب المعطيات النّحويّة الإعرابيّة وفق صياغة صارمة تساعد على تمثّل الخيط الناظم بين مختلف المستويات النظريّة فنفصل بين الفرضيّات الكبرى، والتّعريفات، والأوليّات، وما أنتجته من مبرهنات، لتقييمها وبيان مواطن قوّتها وضعفها.

ـ عرض النّماذج النّحويّة على الاختبار وأفضل اختبار للنظريّة هو البحث عما يدحضها لا البحث عما يؤيّدها ببيان درجة قابليّة افتراضاتها للدّحض . فهل بنى النّحاة نحوهم على افتراضات قويّة وقليلة لها قدرة عالية على التّفسير أم أنّها افتراضات ضعيفة تستند إلى الافتراضات الجانبية والمناسبة ممّا يضعف قيمتها الاختباريّة وغالبا فإن النحو العربي إلى حدود القرن الرّابع كان نحو مبادئ ولم يكن نحو قواعد .

إنّ معالجة النحو القديم بهذا التصوّر النّقدي مشروع بحث تفرضه الرّغبة في تجديده والنّهوض به من حالة الجمود والتحجّر[9] وهذه المعالجة تمكننا من نظم هذا الفكر ضمن سيرورته التاريخيّة والأهم يمكننا من النّظر إليه بكلّ وضوح فنتمثّل قيمته الحقيقيّة وقد نستفيد منه على غرار ما استفاده الرياضيون من معالجتهم للنّظريات الرّياضيّة القديمة وتبقى النّظريات القديمة مقبولة مادامت قابلة للدّحض ولم تدحض [10], والأهم من كل ذلك إنّ المعالجة النّقديّة تفتح المجال أمام النّحويين واللغويين عامّة إلى بناء قضايا جديدة تعيد البحث من جديد إلى دائرة اللّغة العربيّة باعتبارها ظاهرة طبيعيّة وثقافيّة هذا البحث المتوقّف منذ القرن الرابع للهجرة

لعلّنا لا نحتاج اليوم إلى نظريّة نحويّة جديدة بقدر ما نحتاج إلى تفكير نحوي جديد يبنى على رؤية منهجيّة ونظريّة واضحة و وهذا الضوح لا يتحقق حسب رأيي إلاّ بالنّقد.

---

(0) ننوّه إلى أنّ درس النّحو العربي يشهد في بعض أقسام اللغة العربيّة تجدّدا هاما ساهمت في تطويره الدراسات الحديثة التي تناولت التراث النحوي بالنّقد إلاّ أنّ الغالب عليه في الكثير من الجامعات الطابع التقليدي الصرف الذي جعل منه درسا جامدا لا يقبل التجديد

(1) صلاح الدين الشريف : الشّرط والإنشاء النّحوي للكون بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات

(2) (الإقتراح / ص 94 – 95 انظر كذلك الإيضاح للزّجاجي ص 64– 66)

(3) L’erreur est un des temps de la dialectique qu’il faut traverser (…) elle est l’élément moteur de la connaissance "La formation de l’esprit scientifique p13"

(4)صلاح الدين الشريف : الشّرط والإنشاء النّحوي للكون بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدّلالات

(5) (الإقتراح / ص 94 – 95 انظر كذلك الإيضاح للزّجاجي ص 64– 66)

(6) « Quand on dit qu’un tel discours est un système, on veut indiquer que les propositions qui le constituent forment un tout articulé qui le constituent forment un tout articulé dans lequel chaque proposition à une relation déterminée avec chacune des autres qu’elle en découle ou qu’elle soit présupposée par elle la notion qui servira ici de clef à l’analyse est celle de la déductibilité » (E. U. T.17 . PP 585 – 586).

(7) « Pour soumettre un système à des tests rigoureux, il faut au préalable que ce dernier ait acquis une forme suffisamment définitive pour y rendre impossible l’intrusion de nouvelles hypothèses. En d’autres termes, le système doit être formulé avec assez de clarté et de précision pour qu’on puisse facilement y reconnaître ce que chaque nouvelle hypothèse y représente : une modification et donc une révision du système » (Popper /La Logique de la découverte / 1973. P 69).

(8) « … en parle de " modèles " dans les programmes de recherche. Un " Modèle " est un ensemble de condition initiales ; on sait qu’elles seront forcément remplacées au cours du développement ultérieur du programme ». (Lakatos / Histoire et méthodologie des sciences / 1978. P68).

(9) ننوّه إلى أنّ قسم اللّغة العربيّة في الجامعة التونسيّة كان قد قاد مشروعا كبيرا منذ بداية سبعينات القرن الماضي تناول إعادة قراءة التراث النحوي وفق ثوابت العلم الحديث قاد المشروع أساتذة كبار مثل أ عبد القادر المهيري وأ حمادي صمّود وأ صلاح الدين الشريف وأمحمّد الشاوش وأعبد السلام المسدي وجيلين من طلبتهم وقد أثمرت مجهوداتهم العديد من الكتب الهامّة التي يمكن أن

تسهم إسهاما كبيرا في إنجاز مشروع عربي متكامل يتناول إعادة صياغة التراث النّحوي صياغة علميّة حديثة على غرار ما يوجد في الفيزياء والرياضيات والفلسفة . ويمكن أن يسهم كذلك في وضع برامج جديدة لتعليم النّحو في الجامعات حتى يواكب ما تشهده اللغة اليوم من تحديات

10) Les theories scientifique si ils ne sont pas falsifiees restent toujours des Hypotheses (Popper /La Logique de la découverte / 1973. P 69).